لقد آمن قس بالبعث

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم وفد إياسٍ علىٰ رسول الله ﷺ، فسألهم عن قسّ بن ساعدة الإيادي، فقالوا: هلكَ يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه: «لقد شهدتُهُ في الموسم بعكاظٍ وهو علىٰ جمل له أحمر ـ أو علىٰ ناقة حمراء ـ وهو ينادي في الناس: أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وعُوا، واتّعظوا تنتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتْ، أما بعد، فإن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، نجومٌ تغور، ولا تغور، وبحارٌ تفور، ولا تغور، وسقفٌ مرفوع، ومهادٌ موضوع، وأنهارٌ منبوع، أقسمَ قسٌ قسماً بالله لا كذباً ولا إثماً، ليتبعنَّ الأمر سخطاً، ولئن كان في بغضه رضاً، إن في بعضه سخطاً، وما هذا باللعب، وإن من وراء هذا للعجب، أقسمَ قس قسماً بالله لا كذباً ولا إثماً، إن لله ديناً هو أرضى له من دينٍ نحن عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضُوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟».

قال رسول الله ﷺ: «ثم أنشد قس بن ساعدة أبياتاً من الشعر لم أحفظها عنه»، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: أنا حضرتُ ذلك المقام، وحفظتُ تلك المقالة، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هي؟»، فقال أبو بكر: قال قسّ بن ساعدة في آخر كلامه:

في الذاهبين الأوّلين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ مواراً للمو ... ت ليس لها مصادر

ورأيتُ قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابر

أيقنـــــتُ أنـــــي لا محـــــا لـــة حيـث صـار القـومُ صـائـر

ثم أقبل رسول الله ﷺ علىٰ وفد إياد ، فقال: «هل وُجد لقس بن ساعدة وصية؟» فقالوا: نعم وجدنا له صحيفة تحت رأسه مكتوب فيها:

يـا نـاعـي المـوت والأمـوات في جـدثٍ عليهـم مـن بقـايـا ثـوبهـم خـرقُ
دعهـم فـإن لهـم يـومـاً يُصـاح بهـم كمـا يُنبّـه مـن نـومـاتـه الصّعـقُ
منهـم عـراةٌ ومـوتـىٰ فـي ثيـابهـم منها الجديد ومنها الأورق[1] الخَلَقُ[2]

أجل!

لقد ذكر القرآن الكريم الحديث عن الحنفاء ، والذين كانوا علىٰ ملّة إبراهيم عليه السلام ، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وهؤلاء القلّة كانوا يعتقدون بوجود إلٰه واحد أحد ، وبالطواف بالبيت الحرام ، وبالوقوف علىٰ عرفة ، والابتعاد عن الأوثان والأصنام ، وأكل الميتة وما أهلّ لغير الله ، وما إلى هنالك.

كل هذا جعل الرسول ﷺ يستفسر عن أحوال الحنفاء ، ويذكر أن واحداً منهم هو قس بن ساعدة قد خطب ذات يوم في السوق ، وكان الرسول ﷺ يستمع مع المستمعين ، ثم تذكّر خطبته الرائعة ، ولذلك أثنى عليه كثيراً ، واعتبره ـ حسب روايته للشعر ـ واحداً من المقتنعين بالبعث.

واهتمامه فيه وبأقواله دليلٌ على أنه روح الوجود ﷺ:

إليـكَ وإلاّ لا تشـدّ الـركـائـبُ ومنـكَ وإلاّ فـالمـؤمّـلُ خـائـبُ
وفيـكَ وإلاّ فـالغـرام مضيّـعٌ وعنـكَ وإلاّ فـالمحـدث كـاذبُ

* * *

(١) أي: الأسمر.

(٢) عيون الأثر: ١/ ٦٨ ، دلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ١٠٢.